عبد الله البري يصبح بحريا

أحمد الرضاوني

طوبوغرافيـة الخـوف والقمـع :

I) ـ وقف اعواما طويلة على أرض الشاطيء البادرة ، تلفه الزرقة وتزحف نحو قدميه الغائرتين في الرمل كل الطحالب التي تخلص منهـا البحر اليوم وأمس . . وقف قلقا ينظر لعل مركبا قادما من بلاد الشرق البعيدة (في الزمان) ذاهبا الى الغرب يحمله معه ويخلص قدميه من دغدغة الموج وبرودة الرمال المطرية ، يشده الى اعماقها صدرها الرحب ، وجبال تردده ، وطول مكوثه في تلك النقطـة .

ولما كان قد وقف طويلا دون ان يلمس اي مركب ، فقد خطر له أن ينتفض ، فكر لحظات في خط الاتجاه ثم بدا يتحرك . كذا ولدت نقطة سفرته منها أول خطوة ، توالت الخطى على أرض الشاطيء المبتلة ثلاثة اشهـر ثم اختفت في ثمر المحيط . في البدء ، كانت وحيدة ، هادئة ، رزينة ، رتيبة ، ثم لحقت بها خطوات أخرى ، خرجت من نقطة في الازل غير أنها كانـت تتحرك في خط معاكس ينحني ويتكسر . ولحظة التقاطع تغير كل شيء . الهدوء والرقابة ، والاتجاه المستقيم . صارت الخطى تنط وتجري مع ذلك كانت بدورها خطى آدمية . . تتميز عن الاخرى بشيء ما ، ليس ممكنـا معرفته لاول وهلة . ربما كانت غائرة أو حادة أكثر من اللازم . ربما كان صاحبها اضخم من المعتاد ، لكن المؤكد انها اخذت تفعل تماما كالاولى ، تنز واسراع (ترى هل بدأت المطاردة فورا لحظة التقاطع ؟) اقتضى الامر ان يتاكد الرجل من ذلك قبل ان تزيد سرعة خطواته ، فلما خار القـى بنفسه في اغـوار المحيـط .

حين شاهد المطارد ذلك وقف وظهر على خطواته الارتباك (بالرغم من أنهما التقيا منذ شهرين وسارا معا في وقت واحد الا أن الفاصل بينهما ظل واسعـا في الزمان والمكـان) .

2) ـ قبل أن يقسم صدقه الجميع (في الواقع صدقوا على ظهره كسوت

الرسمية) قال لهم « بأم عيني رأيته يسير هادئا على الشاطيء ، فلما رآني نط وأوشك أن يطير . لاحقته مدة شهرين ، ثم حين اقتربت منه ، غاص في البحر ولم يخرج منه حيا ولا ميتا . . قلت في نفسي لعله سيطفو من مكان ما لا أراه ، فاعتليت هضبة رملية بحيث أسيطر منها على سائر المحيط ، لكن اللعين لم يظهر ، فلما تأكدت من اختفائه سارعت بالاخبار ثم رجعت للقيام بواجبي عند نقطة اختفائه . . » .

في نبضة تحول الشاطيء الى دولة . جاءته القوات بكثرة ، وحتى الطائرات الشاطئية التي تحوم في دوائر حول نقطة الاختفاء ، وكذا جيوش من رجال الاطفاء والغواصين والضفادع الذين تناوبوا الغوص . في كل دقيقة تمضي يتراكم الناس الذين لوحظ انهم ـ باستثناء الرسميين ـ ظلوا يديرون ظهورهم الى الشاطيء وينهمكون في أشغال وأقوال تختلف بحسب العمر ودرجة الصحة . منهم من لم يجيء وان كان حاضرا ومنهم من جاء وهو غائب . . (مرت أشهر عدة قبل ان يعثر أحد الضفادع على الرجل في القاع وكان ما يزال جالسا يفكر ويتنفس . .)

استنطاق :

الشعر ملتصق برأسه الملطخ دما ، ووجهه مفقود المعالم ، وهو لا يكاد يمشي . . لا يرى ولا يتحرك (عيناه منتفختان ومعصوبتان ، ويداه محشورتان في القيد) .

ـ ما اسمك . . ؟
ـ عبد الله . . اين أنا ؟
ـ عبد الله ماذا ؟
ـ اريد أن اعرف اين انا .
ـ طيب . . الا تريد الاجابة ؟ . . مرت لحظة . .
ـ اسمي عبد الله البحري .
ـ وجدنا مع أصحابك أوراقا تصفك بالبحري فهل أنت هو ، أم هناك شخص آخر بهذا الاسم ؟
ـ لا فرق بيننا ، نحن شخص واحد .
ـ ولم صرت بحريا ؟
ـ من لا يضطر لان يبقى بريا يصير بحريا . .
ـ ماذا كنت تفعل هناك ؟
ـ كنت فقط اقرا ، وافكر ، واحن ، واحيا ، لم افعل بعد شيئا مهما .
ـ ما السبب ؟
ـ لانكم جئتم باكرا .

ـ مـا الذي كنت تنوي فعلـــه ؟
ـ أصطاد الناس وأبيعهم مجانا للسمك يعلمونهم الكتابة والقراءة والتفكيـــر والحســب .
ـ اخرس ايها اللعين ، سنعلمك التهكم .
انهالوا عليه ضربا ، ثم قدموه هدية لمستشفى الامراض العقلية ، ولم يعرف أهله أيـن كـــان .

عبـد اللـه يحكـي عـن محنتـــه :

انا عبد الله ، الرجل البري الذي يحيا على الارض كسائر الناس . احترفت لنفسي مهنا شتى فوجدتها كتجارة الغالب من قومي كاسدة ، بينما بلغت تجارة الامم في أمصار بعيدة وقريبة حدا لا يضاهى من الرفعة والعلو والخير . فلما تفكرت في الامر وبحثت عن العلة رأيت أن المراكب ـ وهـي عصب التجارة النابض ـ لم تعد تقف عندنا ، وليست تجارتنا ـ لما هي عليه ـ بقادرة على شراء سفن فضلا عن صناعتها لذا لم يعد بـد مـن استباح مراكب الناس جلبا لرواج البيع والشراء ، مما سيكون فيـه الخير لسائر الحرف الاخرى . فما كان الا أن خرجت أمشي على الشاطيء مترصدا مرور بعضها ، لكن لسوء الحال رآني أحد الذين يمنعون رسوها لما لهم من الفائدة في ذلك ، فحاولت الفرار الا أنه كان ألصق بي من ظلي .. حتى ايقنت من هلاكي . غير أن الالطاف شاءت أن تخرج علي بصوت يناديني « يا عبد الله يا عبد الله ، ابشر ، أنا أخوك عبد الله البحري ، هلـم اليك هلـم » وكان الصوت قادما من وراء الموج . . فالتفت خلفـي فاذا الرجل أقرب الـي مما كنت أعتقد ، واذا أنا أتردد بين امرين لابد مـن احدهما . قلت قبل أن أسوخ تحت الرمال : « والله لئن جاوزت هذا الشوك الى البستان لانوحن نواح البلبل ، فاعجب لبلبل يفتح فاه ليأكل الشوكه والورد ! ... ليس عجبا أن تفر الشاة من الذئب ، العجب أن يكون لهـا منه حبيب . . . كيف يضحك المرج في الربيع اذا لم يبك الشتاء ، وكيف ينال الطفل اللبن بغير بكاء . كذلك يلقى رجل الطريق الخير والشـــر راضيا موقنا بأن الالم يكمل ويرقى حتى يبلغ غايته » (1) .

حين صرت بجواره سلم علي ومسح على رأسي وهنأني بما أنـا فيه حتى سكن روعي ، ثم تولى تسويحي في عالمه ، الذي كنت أظن أن من فيه لا علم لهم بما يحدث ـ كل دقيقة ـ لاهل الوجه البري ، فاذا أنـا بعد قليل أوقن من خطأ ظني وأصبح أوسع علما مما كنت وأخف مما ظننت وأكثر قدرة على الاقتراب من نفسي وعن غيري ، حتى لقد بت اعتقد ان المشاكل كائنات لا قدرة لها على مصاحبة المرء الى اسفل البحر فاذا هـــي تطفو وراءه ويجرفها موجه مع الزبد الى شاطئه . اما ضريبة ذلك ـ كما قال

لي صاحبي عبد الله البحري مرارا ـ فهي ان يتحول المرء الى سمكة والا اخرجه الغواصون والضفادع بسهولة ، اذ لكل عالم شكل وهيئة تناسبه . واذكر انهم حين عثروا علي كنت جالسا أحاور صاحبي فأخرجوني دونه ولم يهتموا به ولا شكوا في شكله . وعجبت كيف اساؤوا الى حين أخبرتهم بان اصحابي في القعر كانوا اسماكا ، بل رموني بالخبل ثم أخلوا سبيلي .

وبعد فها أنا من جديد أفتح تجارتي ، وان كانت حالتها قد ازدادت كسادا . . لا أبيع شيئا ولا أكاد أشتري ، وكل همي أن اراقب الناس يتحركون دون مال أو بضاعة ، تتجرجر أيديهم الطويلة الى جوار أقدامهم . يحز في نفسي مرآهم وهم يتخبطون تحيط باطرافهم خيوط دقيقة يشتغلون في البحث عن رؤوسها . وخيل لي أنني أعرف من شؤونهم ما لا يعرفون . . بينما انا على تلك الحال ادركتني غشاوة فلم اعد أرى شيئا .

1977 ـ 10 ـ 22